كتب بالعربية

حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات

شفيق الغبرا

بيروت: دار الساقي، ٢٠١٢. ٤١٤ صفحة.

أخيراً يلتقي الدكتور شفيق الغبرا "جهاد" بصفته "ظلّه الحقيقي" كي تتم نهاية القصة التراجيدية ويرحل الفدائي قبل أوان الرحيل وقدوم البواخر. كأن المقاتل السابق، الناجي من حملة التطويق والإبادة، خطط لحياته ما بعد الفدائية أن تؤهله ليكون الرئيس المؤسس للجامعة الأميركية في الكويت (٢٠٠٣ – ٢٠٠٦)، بعدما أخذ جانب الكويت التي يحمل جنسيتها في حرب الخليج الثانية وتولى إدارة المكتب الإعلامي الكويتي في واشنطن الذي كان عصب "المقاومة الكويتية" ضد عراق صدّام حسين.

من هذا الباب، يعود الدكتور شفيق الغبرا إلى "الحياة الآمنة" في الكويت التي حاول أميرها إقناعه في سنة ١٩٧٥ بتجنّب الانضمام إلى العمل الفدائي الفلسطيني قائلاً له: "يا شفيق هذا الدرب لن يؤدي إلى الهدف الذي تريد، بإمكانك أن تخدم قضيتك من موقع آخر. ولأنك تهمني لا أريدك أن تغامر بحياتك" (ص ٩٩).

لكن مَن يقرأ السيرة الذاتية للدكتور شفيق الغبرا يلاحظ فوراً أن الذي أتاح له بعض الحضور في الحياة الإعلامية العربية خلال المرحلة الحاسمة التي سبقت الغزو الأميركي للعراق وتفكيك دولته، ليس دخول الوسط الأكاديمي والصحافي من البوابة الأميركية فحسب، بل أيضا توظيف الرصيد المتأتي من انخراطه في الكفاح المسلح الفلسطيني، ودوره البطولي في السرية الطلابية / كتيبة الجرمق، في معارك الجنوب اللبناني وصنين وبحمدون، سعياً لإنهاء التورط في الحرب الأهلية اللبنانية وإعادة تصويب البوصلة نحو فلسطين. فالذي صنع هذه الشخصية المتقلبة المثيرة للجدل، هو أولاً وأخيراً التجربة العظيمة لجيل من الشباب الفلسطيني والعربي مع الثورة والمقاومة من أجل القضية الفلسطينية خلال الفترة ١٩٦٧–١٩٨٢.

وبهذا المعنى يقول شفيق الغبرا إن قصة "جهاد" تختصر قصص آلاف الشبان الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والعراقيين واليمنيين والعرب وغير العرب ممّن عاشوا تجربته، أو سبقوه إلى تجربة شبيهة.

* * *

يروي الكاتب عبر فصول قصيرة نسبياً، وبأسلوب سردي رشيق يكشف العفوية الجياشة والتكرار أحياناً، والتركيب المنطقي المدروس إجمالاً، الأعوام الأولى لطفولته، منذ ولادته في الكويت في سنة ١٩٥٣ في كنف عائلة

فلسطينية من أصول حيفاوية، حتى انخراطه في العمل الثوري من سنة ١٩٧٥ إلى سنة ١٩٨١، وانسحابه من العمل الفدائي والكفاح الفلسطيني المسلح.

ويمكن القول إن القيمة الأساسية لهذه السيرة الذاتية التي تقع في ١٧ فصلاً، تنبع من تداخل مسارين أساسيين: الأول ينطوي على "وقائع وأفكار وسلوكيات" (ص ٣٨٢) إزاء "النكبة" التي تعرّض لها الفلسطينيون في سنة ١٩٤٨، وكانت عائلة الغبرا في عداد الذين فقدوا كل شيء وشُرّدوا في الديار العربية، ثم حرب ١٩٦٧ التي غيّرت حياة شفيق الغبرا وحياة كثيرين من أبناء جيله العرب، إلى معركة الكرامة في خريف سنة ١٩٦٨ وصعود حركة الفدائيين والاتصال الأول بحركة "فتح"، وبالتالي الالتحاق بالتنظيم الطلابي للحركة في مطلع سبعينيات القرن الماضي تمهيداً للانضمام إلى العمل الفدائي في الجنوب اللبناني في سنة ١٩٧٥.

أمّا المسار الثاني، فإنه محاولة للكاتب قل نظيرها لتوثيق تجربة رائدة في العمل الثوري العربي، وهي تجربة السرية الطلابية / كتيبة الجرمق التي صنع لها "جهاد" ورفاقه من قادة السرايا والمقاتلين صفحات مجيدة كانت طي الذاكرة حبيسة التنظير "الاستراتيجي" الذي لا يعير البعد الإنساني لعمل المجموعة والأفراد اهتماماً. ثم أخذ على عاتقه تسجيل وقائع مسيرتها وكشف المحجوب من أفكار وأفعال المؤسسين والقادة والناشطين، وكذلك الأجواء الفكرية والسياسية والصراعات التي أثّرت في سلوكهم أو تأثروا بها في المحيط الواسع والمتلاطم لحركة "فتح" وتنظيمها الطلابي والكفاح المسلح الفلسطيني.

المشاكس وإشكالية الهوية

تُذكّر قراءة الفصول الأولى من الكتاب والمتعلقة بذكريات طفولة شفيق، بالمروية الفلسطينية الكبرى وتفرعاتها العربية والدولية. فقد تعرضت العائلة لمعاناة شديدة تحت وطأة حرب ١٩٤٨ إذ فقد جدّه لوالده تجارته ومنزله في حيفا، ولجأ أفراد العائلة إلى مصر، أمّا جدّه لوالدته، وهو من عائلة الطبري من طبرية، وهي إحدى أغنى العائلات في فلسطين في ذلك الوقت، فلجأ إلى دمشق وتشتتت عائلته بين لبنان والأردن. ويروي شفيق الغبرا أنه عاش طفولته في خمسينيات القرن الماضي في الكويت، وسافر مع والده الطبيب إلى لندن حيث تعلّم الإنجليزية واكتشف عروبته باكراً. ويخبرنا أنه في سن السابعة ولدى عودته من بريطانيا عبر القاهرة، أدرك أنه عربي في الغرب وأنه قد يبدو غير عربي في الشرق: "صدمت في الحالتين، ولكن مع الزمن سأجد أنني الاثنان معا وأن جانباً من الغرب قد صاغني وأثّر في عقليتي" (ص ٣١).

كان الشيخ الصباح السالم الصباح أمير الكويت السابق صديق والده الذي كان الطبيب الخاص للأمير وأسرته. ويُبرز الكاتب أن منح والده الجنسية الكويتية في سنة ١٩٦١ سبّب له ارتباكاً إذ كان في الثامنة وراح يتساءل: مَن أنا؟ وكيف أكون فلسطينياً وكويتياً في الوقت نفسه؟

في "برمانا هاي سكول"، في مطلع الستينيات (١٩٦٢–١٩٦٥)، تعلّم الاستقلالية، والدرس الأول الذي سيلازمه طوال حياته في ضوء النزاعات بين "أبناء الذوات" والقرويين المجتهدين، هو علاقات

القوة بين الناس. لكنه أصبح "المشاكس الأول" (ص ٣٦) في تلك المدرسة التي كانت ومثيلاتها من المدارس الداخلية في لبنان تستقبل الأولاد والفتيان العرب باعتبار أن التحصيل فيها يُعدّ امتيازاً، الأمر الذي حدا بوالده على إعادته إلى الكويت حيث أثبت أنه "صلب العود" (ص ٣٧) في الاشتباك بالأيدي مع كثير من الأولاد.

وجاءت حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ لتغير مسار حياته وحياة العديد من أبناء جيله العرب. وفي هذا السياق، شهد خريف سنة ١٩٦٨ حدثاً كبيراً تمثّل في معركة الكرامة وصعود حركة الفدائيين في الأردن، فكان الاتصال الأول للكاتب بحركة "فتح" والانقطاع عن حياة اللهو وسباق السيارات بعد اللقاء في سنة ١٩٦٩ مع مسؤول بارز في "فتح" هو "أبو إياد".

ويتحدث الكاتب عن لبنان وكيف تحوّل إلى مركز للقضية الفلسطينية، وللحداثة العربية التي يعرّفها بأنها الإيمان بالحرية والسعي للمساواة والعدالة والتعلّم من الشرق ومن الغرب. ويمر على أحداث أيلول / سبتمبر ١٩٧٠ ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر والحرب على الفدائيين في الأردن وتحوّل لبنان إلى المركز الوحيد للعمل الفدائي ضد إسرائيل. ويولي الكاتب الفترة الممتدة من خريف سنة ١٩٦٩ حتى صيف سنة ١٩٧١ حين تخرج من الثانوية في لبنان، أهمية خاصة قائلاً: "عشت تجربة لبنان وتداخلاته مع كل العوالم. فما رأيته وعاصرته في لبنان يمثل كوناً في ذاته. فقد عايشت القوميين العرب والفلسطينيين، وشاهدت عمل الجناحين اليميني واليساري، الحكومة والمعارضة، المثالية والثورة. إن أولئك الذين عرفوا لبنان أواخر الستينات وأوائل السبعينات يلتقون ضمن رابط وتجربة مشتركين. فلبنان حينذاك واقع وسراب في الوقت نفسه. فهو بلد حر وفي الوقت نفسه مركز لكل صراعات العالم العربي وقضاياه" (ص ٥٩).

في سنة ١٩٧١ يذهب شفيق الغبرا إلى الولايات المتحدة كي يبدأ الدراسة الجامعية هناك، ويكتشف "كم يختزن المجتمع الأميركي من قوة أساسها بناء شخصية الفرد وتمكينه وعدم قمعه وجعله مستعداً لأن يكون نجماً في المجال الذي يختاره" (ص ٦٥). ولا يلبث أن ينضم إلى تنظيم "فتح" في الولايات المتحدة بتوجيه من الدكتور نبيل شعث.

يعود إلى لبنان غداة اغتيال القادة الفلسطينيين الثلاثة فيما سُمي "عملية فردان" في سنة ١٩٧٣، ومحاولة النظام اللبناني تطويق المقاومة، ويتابع عن كثب في منطقة الجامعة العربية والطريق الجديدة غربي بيروت، الانتفاضة الطلابية بقيادة أبو حسن قاسم (محمد بحيص) دفاعاً عن المقاومة.

في سنة ١٩٧٥ ينهي شفيق متطلبات التخرج من الجامعة ويقرر التفرغ للعمل الثوري "لأن أفكاري تحتاج إلى تجربة تقرر مدى صحتها وتصوب فرضياتها." ومرة أُخرى يفاتح والده بالأمر، فيسارع الأخير إلى أخذه إلى صديقه أمير الكويت الذي سيحاول ثنيه عن قراره من دون جدوى.

عندما أصبح شفيق الغبرا "جهاد"

تروي الفصول ٦–١٦ المسار المتعرج لتجربة الكاتب، من التيار الطلابي إلى جبهات الحرب الأهلية في لبنان ومقاومة التدخل العسكري السوري، مروراً بالسرية الطلابية / كتيبة الجرمق

والصعود والهبوط في مهمات العمل في الجنوب اللبناني، وصولاً إلى اجتياح سنة ١٩٧٨ والقتال وراء خطوط العدو الإسرائيلي وانهيار "القاعدة الآمنة". ويسجل أن التيار الطلابي استند إلى قاعدة واسعة في الجامعات في لبنان وفي جامعات إقليمية، وأن هذا التيار ركّز على التحالف مع جميع الأطراف بما في ذلك الأنظمة المسماة رجعية أو عسكرية انقلابية، من زاوية تكتيكية على الأقل، من أجل تحقيق تغيير في المعادلة العربية ـ الإسرائيلية لمصلحة العرب، مشيراً إلى أن هذا التيار حافظ على كثير من الاستقلالية والقدرة الذاتية ضمن حركة "فتح"، منطلقاً من أن الأولوية ليست الصراع مع الأنظمة العربية، وإنما مع إسرائيل.

ويتحدث عن بداية السرية الطلابية (١٩٧٥) ومؤسسيها، وفي مقدمهم اثنان من القياديين قي "القطاع الغربي" المسؤول عن المقاومة في الداخل وهما أبو حسن وحمدي. ويعرض مطولاً وبعمق لصفاتهما القيادية الفذّة وقدراتهما الخلاقة والعملية، وخصوصاً في تنظيم المقاومة في الأرض المحتلة، مشدداً على أنهما، فضلاً عن عملهما في الأراضي المحتلة الذي جعلهما ملاحقين من الإسرائيليين في كل مكان، كانا من العاملين الأساسيين في التشكيل الجديد ذي المنحى القتالي واليساري ضمن حركة "فتح"، إلى جانب سعد (عبد القادر جرادات)، أول قائد للسرية الطلابية، وعلي أبو طوق الذي قاد مع مروان كيالي التنظيم الطلابي في المدارس الثانوية.

وعلى غرار اللجان الوطنية في الجبل وبيروت، والشبيبة الوطنية في الشمال، فإن عدة مجموعات طلابية يسارية لبنانية ستنضم إلى الجهد التأسيسي للسرية الطلابية التي ستُعرف في مرحلة لاحقة باسم "كتيبة الجرمق"، وذلك عندما سترابط على التلال المطلة على فلسطين المحتلة وتخوض معارك بطولية لأعوام امتدت طوال النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين إلى أوائل ثمانينياته.

ثم يتناول وقائع الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥) والتدخل العسكري السوري (حزيران / يونيو ١٩٧٦)، شارحاً كيف أن السياسة الدفاعية للسرية الطلابية، سواء في معركة البرجاوي ـ الطبية في بيروت، أو في معركة بحمدون ضد التدخل العسكري السوري (تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٦) أو في ملحمة صنين صيف سنة ١٩٧٦، كانت تجري وسط هاجس وقف الحرب الأهلية وإرادة العودة إلى الجنوب لاستعادة أسس النضال من أجل القضية الفلسطينية.

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية، أو ما عُرف بحرب السنتين، بتسوية مع النظام السوري انسحبت المقاومة بموجبها من الجبل ومن مناطق في بيروت إلى الجنوب لمواجهة إسرائيل، وبقيت مناطق المخيمات والجامعة العربية / الطريق الجديدة، علاوة على الجنوب، "مراكز محصنة للمقاومة الفلسطينية." وانتظمت وحدات السرية الطلابية في ٢٠ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٦ في قافلة كبيرة توجهت نحو منطقة الحدود في الجنوب اللبناني، وذلك بعدما توسعت السرية وباتت تضم مئات الطلبة والمتطوعين العرب والفلسطينيين من الشتات، وصارت تشكيلاً عسكرياً متقدماً يشمل مجموعة من الوحدات والسرايا.

"جهاد" على الحدود

ها هو المقاتل "جهاد" في ساحة الوغى مجدداً، بعدما تمركزت السرية في الجنوب اللبناني في منطقة بنت جبيل، ومهمتها الأساسية منع توسيع الشريط الحدودي التابع لإسرائيل، بل العمل لتقليصه.

وبات "جهاد" قائداً لمدينة بنت جبيل ويتحدث بإعجاب عن المهارات السياسية لمروان كيالي الذي رافقه أحياناً في جولاته ومهماته في الجنوب اللبناني، ويعرض لوقائع تؤكد أن حماية حقوق جميع الناس من تجاوزات المنظمات الفلسطينية واللبنانية، مثّلت أحد مبادئ السرية الطلابية التي أصبح سلاحها "سلاحاً للمجتمع ولحماية حقوقه في وقت بدأت تبرز مظاهر الاستعلاء على الناس من قبل الوطنيين أنفسهم."

ويذهب إلى القول إن السرية / الكتيبة صارت أكثر الفصائل الفلسطينية المسلحة قدرة على التعامل مع الأبعاد والتوازنات السياسية والاجتماعية والدينية لسكان المنطقة، "إذ اكتشفنا أن القوى الوطنية والفلسطينية منذ الحرب الأهلية قد عزلت عائلات بتهمة الرجعية أو بتهمة الانحياز إلى الدولة اللبنانية وما كان يُطلق عليه الإقطاع السياسي الذي مثلته عائلة الأسعد وعائلة الخليل في الجنوب. هذا التفكير رفضناه" (ص ٢٢٩).

ويلفت الراوي إلى أنه حاول ألاّ يغيب أكثر من ٦ أشهر عن الكويت، وأنه في كل زيارة يجد أسرته مقتنعة بأن هذه الزيارة قد تكون مقدمة لبقائه الدائم، ويترك لوالده أن "يأخذه" إلى زيارة ديوانية رئيس الحكومة الشيخ سعد الذي يحاول إقناعه بالبقاء، من دون جدوى. كما يحرص في اليوم التالي على زيارة الشيخ صباح السالم الذي سيرحل في كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٧، ويذكّرنا أن في الكويت تسامحاً سياسياً واحتراماً للاختلاف، فضلاً عن دعم تاريخي للقضية الفلسطينية، و"هذا تحديداً سيجعلني في يوم من الأيام عندما تقع أزمة كبيرة مثل احتلال صدام ١٩٩٠ وطوال عقد التسعينات الحساس من أشد المدافعين عن الكويت" (ص ٢٦١).

وينتقد المؤلف النموذج السائد في العمل الفدائي الذي يقاتل فيه الفدائي في الجبال والتلال من دون التعامل مع البيئة السياسية والاجتماعية والإنسانية المحيطة، ومن دون الاهتمام بمطالب الناس، ومنها السيطرة على السلوكيات الاستفزازية لبعض المنظمات. ولذلك يسجل أنه ما إن انتقلت السرية إلى مواقع أُخرى في الجنوب اللبناني حتى عادت السرقات والعصابات التي طردتها من بنت جبيل، "وبدأ الوضع يتغير مع حدوث هجرة معاكسة لسكان المدينة بعد خروجنا بأسابيع وسط سقوط صدقية 'فتح' في المدينة" (ص ٢٦٤).

في أي حال، يقر "جهاد" بأنه لم يكن من السهل إقناع الجنوبيين "بأننا مناضلون من أجل الحرية" (ص ٢٦٥)، وخصوصاً منذ أواسط سبعينيات القرن الماضي، ويلاحظ أن "هناك شكاً تبلور من جراء السلبيات التي أحاطت العمل الفدائي منذ أن بدأت الحرب الأهلية. سلوكيات كثيرة عكست تلك الروحية العسكرية غير المدنية السائدة في وسط العمل الفدائي. وكان لزاماً علينا أن نبني نموذجاً مغايراً في بعده السياسي والاجتماعي والإنساني وهذا ما فعلناه في بنت جبيل ومنطقة قانا ومحيطها."

وتكشف فصول الكتاب الأخيرة أن الحدث الأكبر

الذي لم يكن يتوقعه "جهاد" وأبناء جيله من الناشطين الفلسطينيين والعرب هو زيارة الرئيس المصري أنور السادات لإسرائيل في سنة ١٩٧٧ بما مثلته من تحوّل "لم نكن قادرين على استيعابه، وإذا بالأفكار التي نشأنا عليها تواجه صدمة."

لكن الجانب المؤلم والأكثر خطورة في المسار الدراماتيكي الذي أخذ يرتسم في الأفق أنه في ظل اتفاقية السلام مع مصر "ستتفرغ إسرائيل لمقاتلتنا وستقرر بالطبع تصعيد غاراتها وهجماتها علينا دون أن نملك العمق العربي والمصري والتوازنات العربية التي توفر لنا الحد الأدنى من الحماية" (ص ٢٧٧). ويرى "جهاد" في هذا السياق أن "قصة الموت ستكون أليمة بعد حرب ١٩٧٨" (ص ٣١٧) التي خاضت وحدات السرية غمارها وراء خطوط الجيش الإسرائيلي الزاحف على أرض الجنوب اللبناني، مشيراً إلى أن عدد الشهداء فاق المتوقع، وإلى أنه لم يتقبل خسارة هذا العدد الكبير من الشباب في السرية التي تحمّل مسؤوليتها: "لقد عرفت الكثير منهم عن قرب وأعرف عائلاتهم وأصدقاءهم والكثير عنهم. شعرت بالمسؤولية تجاه ذلك. أبلغت عدداً من العائلات ثم عدت إلى معين الطاهر وطلبت مساعدته في إبلاغ بقية الأسر، فقد استنزفني الأمر أكثر من الحرب نفسها."

الإسلام ونهاية مرحلة

انتصار الثورة الإيرانية في سنة ١٩٧٩، والإعجاب التي أثارته التجربة الإسلامية لدى كثيرين في الوسط الفلسطيني واللبناني، في ظل تصاعد السخط الشعبي الجنوبي على الوجود المسلح الفلسطيني، عوامل كلها قلبت المعادلة مرة أُخرى بحيث "صرنا نقول للأهالي نحن في جبهة تمتد من الجنوب اللبناني إلى طهران." غير أن الوجه الآخر للمعادلة كان يفيد أنه بسبب تأثير الثورة الإسلامية "تغيرت مجموعتنا وتغير تيارنا من بيروت إلى الجنوب. فمنير شفيق الذي كان يرمز دائماً إلى عمقنا الفكري وهو مسيحي المولد يساري الفكر، أعلن إسلامه، بينما حمدي وأبو حسن ومروان ساروا على الدرب الإسلامي في إطار 'فتح'، لكن إسلامهم ظل يحمل عمقاً فتحاوياً هدفه إبقاء الجهد مركزاً على تحرير الأرض المحتلة. بقي معين في الوسط براغماتياً، بينما آخرون مثل علي أبو طوق لم يتغيروا وظلّوا على ما هم عليه في براغماتيتهم. لكن بصورة عامة وجد الكثير من شباب الكتيبة والخط المناصر لها في 'فتح' في الإسلام معارضة لاضطهاد إسرائيل ولموقف الغرب من الصراع العربي ـ الإسرائيلي" (ص ٣٤٨).

ويستعيد "جهاد" في هذا الإطار أجواء المناقشات التي أحاطت بسعي البعض لتبنّي موضوعات الثورة الإيرانية والإسلام السياسي، فيرى فيها محاولة من قطاع من الشباب لإدامة الحلم والهدف، بينما بدا هذا السعي لآخرين بمثابة تمديد موقت لحالة غير واقعية، ولا ينفع في إحياء عالم ينهار بسبب فقدان الزخم الكفاحي والشعبي وشروع عدد من الشباب والكادرات في ترك الجنوب اللبناني والبحث عن آفاق حياة مختلفة.

وفي معرض التشديد على "نهاية مرحلة"، تقرّبنا السيرة من تبلور المشهد السلبي للعلاقة مع أهالي الجنوب، إذ وقعت منذ أواسط سنة ١٩٧٩ اشتباكات مسلحة تعكس بداية اهتزاز الأرض تحت أقدام الفدائيين والمقاومة ومنظمة

التحرير في قاعدتها الأساسية في لبنان، الأمر الذي جعل أهم وحدات كتيبة الجرمق تتحول إلى قوة فصل بين حركة أمل وأطراف الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية منذ سنة ١٩٨١ حتى وقوع الاجتياح الإسرائيلي في حزيران / يونيو ١٩٨٢. ومثل هذا التطور يشير في نظر "جهاد" ورفاقه إلى أن القاعدة الجنوبية تزعزعت ولم يعد أحد في الجنوب سعيداً بما آلت إليه الأوضاع بسبب عنف الضربات الإسرائيلية وما تخلّفه من دمار وقتلى وجرحى، والأخطاء الكثيرة للمقاومة الفلسطينية.

لذلك تحولت حركة أمل إلى ظاهرة احتجاج على الوجود الفلسطيني المسلح في جنوب لبنان.

وينهي "جهاد" سيرته النضالية بقرار الانكفاء للتأمل والمراجعة في إثر انسحاب بعض كوادر السرية / الكتيبة الرئيسيين ومنهم أدهم وربحي ثم رياض وشريف وخالد وحسام، ويعيد قراره ترك "فتح" وجناحها العسكري إلى أنه "بحلول عام ١٩٨١ انتابني شعور ضبابي بشأن الطريق الذي غادرت كل شيء من أجله. بدا لي أن جنوب لبنان لم يعد يمثل قاعدة لانطلاق الحركة الوطنية لتحرير فلسطين أو التوصل إلى إقامة الدولة الفلسطينية. لقد بدأ عالمنا بالانهيار وقاعدتنا الأمنية بالانكسار" (ص ٣٥٩).

مفهوم "الأقلية المدافعة"

يقترب شفيق الغبرا من "ظلّه الحقيقي وصديقه مدى الدهر" الفدائي "جهاد"، ليروي سيرته النضالية المتداخلة مع سير الكثير من أصدقائه ورفاقه في العمل الفدائي، متوقفاً عند تجارب أساسية لحركة "فتح" ولا سيما منها تجربة القوة المقاتلة في صفوفها: السرية الطلابية / كتيبة الجرمق. فقد نجح الكاتب في رسم صورة لجيل من الفدائيين الشباب كانت تبدو عصية على التركيب والإحاطة المستقلة لاعتبارات شتى أبرزها: تشعب روافد التجربة وتمايز مشروعها في بنية ناظمة هي منظمة التحرير الفلسطينية؛ تموضعها على تمايزها في حاضنة دينامية هي حركة "فتح" وجناحها العسكري "قوات العاصفة"؛ ابتعاد قيادتها الجماعية من باب الزهد والتفاني والتزام خط الشعب عن النزعة النجومية والظهور الإعلامي؛ ربما أيضا إحاطة المشروع بنوع من "الغموض البنّاء" لدواعٍ أمنية تتصل بمخاطر مقاتلة عدو شرس مثل إسرائيل.

يبقى الوجه الأكثر تأثيراً في نفس القارئ هو الانكسار التراجيدي للمقاتل "جهاد" المفجوع بموت الرفاق والأحبة الذين سيقررون القتال حتى النهاية والموت بشرف وكرامة: ملحمة راسم في قلعة الشقيف مع شباب الكتيبة أمام اجتياح سنة ١٩٨٢؛ استشهاد علي أبو طوق في حرب المخيمات؛ اغتيال سمير الشيخ وعصمت مراد على يد الاستخبارات السورية، بينما ستتمكن الاستخبارات الإسرائيلية من التعاون مع استخبارات عربية للإيقاع بأبي حسن وحمدي ومروان في قبرص. وبعد اغتيال هؤلاء القادة الثلاثة الذين ركزوا على الداخل ومساعدة الانتفاضة الفلسطينية الأولى، سيكون الهدف التالي لإسرائيل بعد شهرين في تونس القائد الكبير أبو جهاد / خليل الوزير.

وتبدو هذه السيرة الذاتية التي استلزم العمل فيها أعواماً طويلة بتشجيع ودفع مستمرين من معين الطاهر القائد الأخير للسرية / الكتيبة، بمثابة

التفاتة وفاء إلى صانعي التجربة وأبطالها وشهدائها. وقد نجح هذا الكتاب إلى حد كبير في تقديم صورة إنسانية مشرقة لشخصيات فلسطينية وعربية بعيدة عن الأضواء تركت أثراً في الحياة السياسية العربية والإسرائيلية.

لقد ركزت سيرة شفيق الغبرا على عدم الفصل بين الجوانب الشخصية والخاصة وتضحيات ومآثر الجيل الذي صنع أسطورة السرية / الكتيبة، لكن من الصعب ألاّ ينتبه القارئ إلى أن شفيق الغبرا الذي يشعر بالحنين إلى رفاق السلاح والشهداء الذين سقطوا من دون أن يحقق رغبتهم وأمنيتهم، يحتاج إلى أن يعيد الاعتبار إلى نفسه من خلال تأريخ تجارب جيل من الفدائيين التزم "قتال الأقلية المدافعة" (ص ٣٦٣)، وهو مفهوم طوّره أبو حسن قاسم إزاء حالة تشتت العرب وضعف قدراتهم وتفوّق الآلة والعدد في الجانب الإسرائيلي، الأمر الذي يحيل على تقويم الدكتور يزيد صايغ في أطروحته "الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٣–١٩٩٣: الكفاح المسلح والبحث عن الدولة".

ميشال نوفل
كاتب لبناني

يافا تعدّ قهوة الصباح (رواية)

أنور حامد

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٢. ٢٠٥ صفحات.

عندما قرأت عنوان هذه الرواية قلت في نفسي إن يافا عثرت أخيراً على روايتها. القدس تمتلك جبرا إبرهيم جبرا، وحيفا كانت موضوع رواية لغسان كنفاني، ومدن الجليل وقراها وجدت رواتها في إميل حبيبي وأنطون شمّاس وآخرين، أمّا يافا فلا أدري لماذا بقيت من دون رواية تحكي قصتها. لعل كتاب "يافا عطر مدينة" لمجموعة من المؤلفين، وبالنص الرائع الذي كتبه شفيق الحوت، هو المرجع "الأدبي" الوحيد عن تلك المدينة الساحلية الفلسطينية التي كانت العاصمة الاقتصادية والسياسية والثقافية لفلسطين قبل النكبة. لا أدري لماذا لم تحتل يافا موقعها في خريطة السرد الأدبي الفلسطيني، وهي المدينة الفلسطينية الكبرى التي اندثرت وتحولت إلى ضاحية لتل أبيب.

ولولا فيلمَي إسكندر قبطي "عجمي"، وإميلي جاسر "ملح هذا البحر"، لقلنا إن الثقافة الفلسطينية، لسبب ما، نسيت مدينة العطر التي تحتل بيّاراتها الذاكرة الفلسطينية.

وعلى الرغم من أن أنور حامد ليس يافاوياً، فإنه كتب الرواية الفلسطينية الأولى التي تحتل يافا عنوانها. وُلد المؤلف في عنبتا بالقرب من طولكرم، ويعمل في "البي. بي. سي."، وسبق أن نشر ثلاث روايات: "حجارة الألم" (٢٠٠٤) صدرت بالمجرية؛